ثم ساست الملك بعد زوجها أحسن سياسية وأحدثت فيه أموراً كثيرة، وسنَّت قوانين لا تزال مرعية حتى الآن، منها أنها أبطلت قتل القاتل واستحضرت من بلاد الفلمنك وغيرها نساء ماهرات فى الصنايع لأجل تعليم البنات المترهبات ووزعتهنَّ على الأديار.

وماتت كاترينا سنة ١٧٢٧ ولها من العمر ٣٨سنة تاركة تاج الملك بحسب وصيتها لبطرس الثانى حفيد زوجها ولهُ من العمر ١٢سنة تحت وكالة ابنتيها الملكتين حنة واليصابات.

(قال بعض المؤرخين)

كثيراً ما قرأنا فى التاريخ أن بناتٍ غير شريفات الأصل اتصلنَ لأسباب معلومة أو غير معلومة لأن صرنَ أميراتٍ أو ملكاتٍ، فلم يعد من سبب لأن تتعجب من حدوث هذا الأمر لكاترينا «مرتا» إنما العجيب أنها أخذت أسيرة عند قومٍ بينهم وبين قومها عداوة شديدة وحروب هائلة، وقد اتصلت مع ذلك إلى أن تسلطت عليهم وحكمت فيهم فكانت هى الأسيرة الحاكمة والرقيقة المالكة، وما ذلك إلاَّ مما جمعت هذه الإمبراطورة من حسن الخصال وكريم الصفات والمزايا حتى أحبها جميع الروس وشهدوا لها بالفضل وقد تمكنت محبتها فى قلوبهم لما تأكدوه بإخلاصها وعدم مداخلاتها فى أمر النكبة التى رزئ بها الكسيس ابن بطرس الأكبر من زوجته الأولى أودكسيا تيودورة، ولم ينسَ المؤرخون فضل بطرس الأكبر الذى تزوج بكاترينا غير مبال بلوم اللائمين الذين يفضلون بعض الناس على بعض من حيث الشرف والأصل، بدعوى أن الأصيل الرفيع النسب مفضل على عامة الناس، وهذه إمبراطورة الروس كاترينا مع كونها من فئةٍ دنيئة من الشعب بلغت من المجد أقصاه ومن العزّ أسماه، وامتلت بالفضل والمحامد على جميع البنات الشريفات، فإن العاقل لا يعتبر الرتب والألقاب بل ينظر إلى

الشخص من حيث الاستحقاق فلا يعد فاضلاً إلاَّ من كان ذا معارف حسن التهذيب، فهو يفضل على ذوى المقامات والرتب، وإن كان دنئ الأصل فإن الناس جميعًا من أصلٍ واحد وعلى فطرة واحدة وليس من فرقٍ بينهم أو تفاوت فى أخلاقهم وعاداتهم إلاَّ من حيث التربية وتأثير طبيعة البلاد التى وجدوا فيها.

(الآنسة اليصابات داويس الأميركية)

ولدت هذه الفتاة من أبوين كريمين فربياها على مهد الدلال والآداب ولما ترعرعت أدخلاها إحدى المدارس العلمية الابتدائية، فانكبت بملء الرغبة والاجتهاد على الدرس والمطالعة حتى نبغت بأقرب ما يمكن من السرعة، وتقدمت على جميع زميلاتها تقدمًا عجيبًا، وفى السنة الثالثة من وجودها فى هذه المدرسة أخذت شهادتها المعلنة بنجاحها ونجابتها وحسن سلوكها وآدابها وعادت إلى والديها تجر أذيال الفخر والفلاح، ولم تمكث عندهما إن أرسلاها إلى مدرسة الكلية الكولمبية الشهيرة، فدخلتها بسرور وانعطاف لا مزيد عليهما، وأخذت تجد آناء الليل وأطراف النهار بدرس الرياضيات حتى نالت ما تتمناه منها بوقت قريب.

ولما طار صيتها فى الآفاق واشتهر علمها فى البلاد الأميريكية اشتهار الشمس فى رابعة النهار، عينت معلمة فى كلية واشنطون، وقد قدرها الرياضيون حينئذٍ قدرها وأحلوها محلاً يليق بفضلها وآدابها، وبعد اقترانها بقليل أشغلت أفكارها فى التقويم الشمسى، ولم تبلغ الثلاثين من عمرها حتى أصلحت الرزنامة البحرية إصلاحًا زادها شهرةً ووجاهة وفضلاً.

وقد تقدمت يومًا إلى مركز علمى راتبه ١٢٠٠ريال فى الشهر، وحازت قصب السبق على ١٢ رجلاً من كبار الرياضيين الذين تقدموا لهذا المركز الخطير، ونالته بقوة